

القرآن والروح

البحث في الروح من أقدم الأمور التي شغلت الناس منذ العصور الموعلة في القدم ، وقد طال فيها الخلاف بين رجال الدين والفلاسفة والصوفية وعلماء النفس ، وقد اتفق أغلبهم على وجودها ، وعلى أنها إذا ظهرت وقويت منعت صاحبها عن الدنيا ، وأعطته قوة غير قوة العضلات والأعضاء ، ثم اختلفوا فيما وراء ذلك : ما أصل الروح ؟ ما حقيقتها ؟ من أين جاءت ؟ وكيف تحيا وتقوى ؟ وأين تذهب حين تعود ؟ . . . إلخ . والبحث هنا لا يريد أن يدخل في مناهات هذا الخلاف ، أو سراديب تلك الفروق ، وإنما يحاول أن يعطى تعريفاً للروح في ضوء الإسلام ، مستعيناً في ذلك بالقرآن والسنة وأقوال الأئمة والحكماء ، ولا شك أن هذا التعريف إذا جاء على وجهه فيما نأمل ، وصاحبه شيء من التفصيل فيما نحاول، فسيعاون الدارس على أخذ صورة واضحة المعالم للأمور الأساسية التي تتعلق بالبحث في الروح .

وأول خطوة ينبغي أن نخطوها هي أن نعرف مفهوم كلمة « الروح » في اللغة التي نبحث بها ونعبر ، وهي اللغة العربية لغة القرآن ، فإذا عدنا

إلى معجماتها وجدناها تقدم إلينا أكثر من معنى لكلمة الروح ، فالروح هي النفس ، أو ما به حياة النفس ، أو خَلَقَ من خلق الله لم يعط علمه لأحد ، أو النَّفْس - بفتح الفاء - الذى يتنفسه الإنسان . . . إلخ .

ولكننا نلاحظ أن أصل مادة « الروح » في لغة العرب يدل على الحركة والمسير ، ومن ذلك قولهم : راح يروح ، أى سار في أى وقت كان ، ولعل ذلك يتصل باشتقاق كلمة « الريح » من المادة ، لأن الهواء متحرك في الطبقات المحيطة بالأرض ، والحركة هي المظهر الأساسي للحياة ، ومن هنا أطلقوا كلمة « الروح » على ما به حياة الإنسان . وقال الأصفهاني في « مفردات القرآن » إن الروح اسم للجزء الذى تحصل به الحياة والتحرك واستجلاب المنافع واستدفاع المضار ، وقال ابن الأثير في « النهاية » : الروح هو الذى يقوم به الجسد، وتكون به الحياة .

وقد حفلت المراجع والمصادر العربية بطائفة من التعريفات للروح ، فقيل : هي جسم هوائي في القلب ، أو هي جزء في الدماغ لا يتجزأ ، وقيل : هي جسم لطيف بخارى يتكون من لطافة الأخلاط وبخاريتها ، وقيل : إن الروح لطيفة سارية في البدن سريان ماء الورد في الورد ، باقية من أول العمر إلى آخره ، لا يتطرق إليها تحلل ولا تبدل ، حتى إذا قطع عضو من البدن انقبض ما فيه من تلك الأجزاء إلى سائر الأعضاء .

واختار بعضهم هذا التعريف : الروح الإنساني جوهر مجرد ، ليس بداخل العالم الجسماني ، ولا خارجه ، ولا متصل به ، ولا منفصل عنه ، ولكنه متعلق بالبدن تعلق التدبير والتصرف ، يدركه العقل ولا يبلغه الحس ، وهذا الجوهر هو أكرم ما في الإنسان .

وأغلب التعريفات للروح - إن لم تكن جميعها - تعتمد على التعبير

عن الخواص والآثار والمظاهر ، ولا تقدم الكُنه أو الحقيقة ، وكان العلماء بهذا يريدون أن يقولوا : إننا نستطيع أن نبحث في الروح وسلطانها ، وبدئها ونهايتها ، وتأثيرها وآثارها ، وخصائصها وظواهرها ، ولكن حقيقة جوهرها مستورةٌ محجبة ، وإن ثار فينا حب البحث عنها والجري وراءها ، ولعل هذا هو الذي جعل الواسطي يقول : « خلق الله الأرواح من بين الجمال والبهاء ، فلولا أنه سترها لسجد لها كل كافر » ! .

• • •

ونسعى إلى كتاب الله عز وجل ، لتعرف إلى حديث الروح فيه : نجد القرآن الكريم قد استعمل كلمة « الروح » في أكثر من معنى . استعملها تارة للدلالة على ذلك السر الإلهي الذي يودعه الله تعالى جسم الإنسان فيحيها به ، فقال في سورة السجدة : « وبدأ خلق الإنسان من طين . ثم جعل نسله من سُلالة من ماء مهين . ثم سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ » . (الآيات من ٧ - ٩) . وقال في سورة الحجر : « وإذ قال ربُّك للملائكة إني خالقُ بشرٍ من صلصالٍ من حمإٍ مسنونٍ . فإذا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ » (٢٨ ، ٢٩) . وقال عن مريم في سورة الأنبياء : « والَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَإِنَّا آيَةً لِلْعَالَمِينَ » . (الآية ٩١) . وقال في سورة التحريم : « ومَرْيَمَ ابْنَةَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتِبَ عَلَيْهَا مِنَ الْقَاتِنِينَ » . (الآية ١٢) .

واستعمل القرآن الكريم كلمة « الروح » أحياناً للدلالة على جبريل عليه السلام ، وسماه تارة « روح القدس » ، وتارة « الروح الأمين » . فقال

في سورة البقرة : « وَآيَاتِ عِيسَى بْنِ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ »
 (الآية ٢٥٣) . وقال في سورة المائدة « إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ ادْكُرْ
 نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ إِذْ أَبَدْنَاكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ » . (الآية ١١٠)
 وقال في سورة النحل : « قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ
 الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ » . (الآية ١٠٢) .

وقال أهل التفسير إن روح القدس هو جبريل ، وهو روح الوحي
 الذي يؤيد به الله تعالى أبياءه في عقوبهم ومعرفهم ، وسمى روح القدس
 لأن التعليم الذي يكون به مقدس ، أو لأنه يقدر النفوس ، أى يطهرها .
 وقال القرآن أيضاً في سورة الشعراء : « وَإِنَّهُ لَنَزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ .
 نَزَّلَ بِهِ الرُّوحَ الْأَمِينُ ، عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ » (الآيات ١٩٢ -
 ١٩٤) . وقال أيضاً عن جبريل وهو يتحدث عن مريم في سورة مريم :
 « فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا » .
 (الآية ١٧) .

واستعمل القرآن الكريم كلمة « الروح » أحياناً للدلالة على بعض الملائكة ،
 أو على صنف من الملائكة له مكانة وشرف ، فقال في سورة المعارج :
 « تَعْرَجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ » .
 (الآية ٤) . وقال في سورة النبأ : « يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا
 لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أُذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا » (الآية ٣٨) . وقال في
 سورة القدر : « نَزَّلُ الْمَلَائِكَةَ وَالرُّوحَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ » .
 (الآية ٤) .

واستعمل القرآن « الروح » بمعنى القوة والتأييد من الله ، فقال في
 سورة المجادلة : « أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِنْهُ » .

(الآية ٢٢). وقال في سورة النساء: «إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى بْنُ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَكَلَّمَتْهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ». (الآية ١٧١) أى ذو روح ، أى ذو قوة وهبه الله إياها فاستطاع بفضل من الله أن يصنع بها المعجزات . واستعمل القرآن كلمة «الروح» للدلالة على وحى الله ، أو على كتابه المجيد ، وهو القرآن المجيد ، فقال في سورة النحل : «يُنزَّلُ الْمَلَائِكَةُ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ» (الآية ٢). وقال في سورة غافر : «رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنزِلَ يَوْمَ التَّلَاقِ» (الآية ١٥). وقال في سورة الشورى وهو يريد القرآن الكريم : «وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا ، وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ» (الآية ٥٢) . وقال في سورة الإسراء : «وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا» (الآية ٨٥) . ولعل هذه الآية الكريمة هي أكثر الآيات القرآنية ترديداً على الألسنة للدلالة على الروح بمعنى السر الإلهي الذي يودعه الله الإنسان فتكون به الحياة والحركة ، مع أن المراد بالروح في هذه الآية - حسبما يلوح من سياقها - هو القرآن الكريم ، لأن هذه الآية جاءت وسط آيات تقول :

«وَنُزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ، وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا . وَإِذَا أُنعِمْنَا عَلَى الْإِنسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ ، وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوسًا . قُلْ كُلُّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلًا . وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي ، وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا . وَلَسْنَا لِنُذَهِّبَهُنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلًا . إِلَّا

رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا . قُلْ لَئِنْ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ ، وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا . وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا » .
(آيات من ٨٢ - ٨٩) .

هكذا مضت الآيات في مسيرتها ، وهي في أولها ووسطها وآخرها تتحدث عن القرآن أو تشير إليه ، وهذا يرجع أن المراد بالروح الوارد هنا هو القرآن المجيد ، لأنه شبيه بالروح في إحياء النفوس ، ولأنه سبب الحياة الأخروية السعيدة الباقية .

ويؤيد الإمام الرازي في تفسيره أن المراد بالروح هنا هو القرآن ، فيقول فيما يقول : « تسمية الله القرآن بالروح يدل عليه قوله تعالى : (وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا) وقوله : (ينزل الملائكة بالروح من أمره) . وأيضاً : السبب في تسمية القرآن بالروح أن بالقرآن تحصل حياة الأرواح والعقول ، لأن به تحصل معرفة الله تعالى ، ومعرفة ملائكته ، ومعرفة كتبه ورسوله . والأرواح إنما تحيا بهذه المعارف ، وتتمام تقرير هذا الموضع ذكرناه في تفسير قوله : (ينزل الملائكة بالروح من أمره) » .

ثم يضيف قوله : « اللائق بهذا الموضع هو القرآن ، لأنه تقدمه قوله : (ونزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين) والذي تأخر عنه قوله : (ولئن شئنا لنذهبن بالذي أوحينا إليك) إلى قوله : (قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ، ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً) فلما كان ما قبل هذه الآية في وصف القرآن ، وما بعدها كذلك ، وجب أيضاً أن يكون المراد من هذا الروح القرآن ، حتى تكون آيات القرآن كلها متناسبة متناسقة » .

• • •

وقد ثار خلاف حول تحديد العلاقة بين « الروح » و « النفس » :
أما شيء واحد أم متغايران . وقد قيل في النقاش إن الروح إذا اتصلت
بالبدن صارت نفساً . وقيل : بل النفس شيء آخر غير الروح ، لأن النفس
هي المعنى الجامع لقوى الغضب والشهوة ، ومن هنا قال القرآن : « إِنَّ
النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ » . وقال الحديث النبوي : « أعدى أعدائك نفسك
التي بين جنبيك » .

وحين نعود إلى القرآن نجد أنه قد أطلق « النفس » أحياناً على « الروح »
كما في قوله تعالى في سورة الأنعام : « وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمْرَاتِ
المُوتِ والمَلَائِكَةُ بِأَيْسُوطِ أَيْدِيهِمْ أَخْرَجُوا أَنفُسَهُمْ » (الآية ٩٣) . ويقول
في سورة الفجر : « يَا أَيُّهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ، ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً
مَرْضِيَّةً ، فَادْخُلِي فِي عِبَادِي وَادْخُلِي جَنَّتِي » (الآية ٢٧) . ولعل هذا هو
الذي جعل الأصفهاني يقول : « جعل الروح اسماً للنفس ، وذلك لكون
النفس بعض الروح ، كتسمية النوع باسم الجنس » .

ولكن هناك آيات أخرى يراد فيها بكلمة « النفس » ذات الإنسان ،
كقوله تعالى في سورة الإسراء : « وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا
بِالْحَقِّ » (الآية ٣٣) . وقوله تعالى في سورة الأعداء : « وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَكُمْ مِنْ
نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ » (الآية ٩٨) .

• • •

والمفهوم من الحديث الصحيح لرسول الله صلى الله عليه وسلم أن الله
تبارك وتعالى يرسل ملكاً إلى الجنين في بطن أمه « فينفخ فيه الروح » ،
ولا تستوفنا هنا حقيقة الطريقة التي يتم بها هذا النفخ ، فباطن ملكوت الله

الخي أكثر من مشاهد كونه المنظورة أو المحسنة ، ولكن الذي يستوقفنا هنا هو : أكانت الروح موجودة قبل الجسم ، أم وجدت معه ، أم وجدت بعده ، وهذا الموضوع أيضاً كان مثار نقاش طويل بين علماء الإسلام ، فبعضهم رأى أن الروح لا بد أن تكون سابقة في الوجود على الجسد ، بل غلا بعضهم وقال إن الروح قديمة ، وذهب فريق إلى أن الروح سقت الجسد في الوجود ، ويؤكد الإمام ابن تيمية أن الروح الآدمية مخلوقة محدثة ، أوجدها الله تعالى ، ويؤكد الإمام أن ذلك موضع تفق بين سلف الأمة وأئمتها .

وتفرع عن هذا النقاش أيضاً حوار حول طبيعة الروح : أمى جسد أم لا . ولقد توسع الإمام الرازي في بحث هذا الموضوع ، وأقام حججاً عقلية وسعية على أن الروح ليست جسداً ، ومما قاله في هذا الشأن وهو لا يفرق بين الروح والنفس :

الحجة الأولى : قوله تعالى (ولا تكونوا كالذين سؤا الله فأنساهم أنفسهم) ومعلوم أن أحداً من العقلاء لا ينسى هذا الهيكل المشاهد ، فدل ذلك على أن النفس التي ينساها الإنسان عند فرط الجهل هي شيء آخر غير هذا البدن .

الحجة الثانية : قوله تعالى : (أخرجوا أنفسكم) وهذا صريح في أن النفس غير البدن ، وقد استقصينا في تفسير هذه ، فليرجع إليه .

الحجة الثالثة : أنه تعالى ذكر مراتب الخلقة الجسدية ، فقال : (ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ، ثم جعلناه نطفة في قرار مكين) إلى قوله : (فكسونا العظام لحمًا) ولا شك أن جميع هذه المراتب اختلافات واقعة في الأحوال الجسدية . ثم إنه تعالى لما أراد أن يذكر نفخ الروح

قال : (ثم أنشأناه خلقاً آخر) ، وهذا تصريح بأن ما يتعلق بالروح جنس مغاير لما سبق ذكره من التغيرات الواقعة في الأحوال الجسدية ، وذلك يدل على أن الروح شيء مغاير للبدن .

فإن قالوا : هذه الآية حجة عليكم ، لأن الله تعالى قال : (ولقد خلقنا الإنسان من سلالةٍ من طينٍ) وكلمة (من) للتبويض . وهذا يدل على أن الإنسان بعض من أبعاد الطين . قلنا : كلمة (من) أصلها لابتداء الغاية ، كقولك : خرجت من البصرة إلى الكوفة ، فقوله تعالى : (ولقد خلقنا الإنسان من سلالةٍ من طينٍ) يقتضى أن يكون ابتداء تخليق الإنسان حاصلًا من هذه السلالة ، ونحن نقول بموجبه ، لأنه تعالى يسوى المزاج أولاً ، ثم ينفخ فيه الروح ، فيكون ابتداء تخليقه من السلالة .

الحجة الرابعة : قوله (فإذا سوَّيته ونفختُ فيه من رُوحى) : ميزَ تعالى بين البشرية وبين نفخ الروح ، فالتسوية عبارة عن تخليق الأبعاد والأعضاء ، وتعديل المزاج والأشباح ، فلما ميز نفخ الروح عن تسوية الأعضاء ، ثم أضاف إلى نفسه بقوله : « من رُوحى » دلَّ ذلك على أن جوهر الروح معنى مغاير لجوهر الجسد .

الحجة الخامسة : قوله تعالى : (ونفَسٌ وما سوَّاهَا ، فألهمَّها فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا) . وهذه الآية صريحة في وجود شيء موصوف بالإدراك والتحريك معاً ، لأن الإلهام عبارة عن الإدراك ، وأما الفجور والتقوى فهو فعل ؛ وهذه الآية صريحة في أن الإنسان شيء واحد ، وهو موصوف بالإدراك والتحريك ، وموصوف أيضاً بفعل الفجور تارة ، وفعل التقوى تارة أخرى ، ومعلوم أن جملة البدن غير موصوف بهذين الوصفين ، فلا بد من إثبات جوهر آخر يكون موصوفاً بكل هذه الأمور .

الحجة السادسة : قوله تعالى : (إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا) فهذا تصريح بأن الإنسان شيء واحد ، وذلك الشيء هو المبتلى بالتكاليف الإلهية والأمور الربانية ، وهو الموصوف بالسمع والبصر ، وبمجموع البدن ليس كذلك ، وليس عضواً من أعضاء البدن كذلك ، فالنفس شيء مغاير لجملة البدن ، ومغاير أجزاء البدن ، وهو موصوف بكل هذه الصفات .

واعلم أن الأحاديث الواردة في صفة الأرواح قبل تعلقها بالأجساد ، وبعد انفصالها من الأجساد كثيرة ، وكل ذلك يدل على أن النفس شيء غير هذا الجسد ، والتعجب ممن يقرأ هذه الآيات الكثيرة ، ويروى هذه الأخبار الكثيرة ، ثم يقول : توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وما كان يعرف الروح ، وهذا من العجائب .

* * *

ويقرر علماء الإسلام كالغزالي والرازي وغيرهما أنه كلما قوى البدن بشهوته ، وتوسع في ملذاته ، ضعف الروح عند صاحبه . والعكس بالعكس . ولذلك يقررون أن أصحاب الرياضيات النفسية والمجاهدات الروحية ، كلما أمعنوا في قهر القوى البدنية وتجويع الجسد ، قويت قواهم الروحانية ، وأشرقت نفوسهم بالمعارف الإلهية ، وكلما أمعن الإنسان في الأكل والشرب وقضاء الشهوة الجسدية صار كالبيهمة ، وبقى محروماً من آثار العقل والفهم والمعرفة والإشراق الروحي .

ولحجة الإسلام الغزالي تقسيم للأرواح البشرية ، فهو يرى أنها تنقسم إلى خمس مراتب :

المرتبة الأولى : هي مرتبة الروح الحساس . وهو الذي يتلقى ما تورده

الحواس الخمس ، وكأنه أصل الروح الحيوانى وأوله ، إذ به بصير الحيوان كائناً حياً ، وهذا الروح موجود عند الصبي الرضيع .

والمرتبة الثانية : هى مرتبة « الروح الخيالى » ، وهو الذى يستثت ما أوردته الحواس ، ويخزنه لديه ، ويحفظه عنده ، ليعرض على « الروح العقلى » الذى يوجد فوقه ، عند الحاجة إلى ذلك . وهذا الروح الخيالى لا يوجد عند الصبي الرضيع فى أول نشأته ، ولذلك نرى الرضيع يولع بالشئ ليأخذه ، فإذا غاب عنه نسيه ، ولم تنازعه نفسه إليه ، حتى يكبر قليلاً فيصير بحيث إذا غاب عنه الشئ بكى وطلبه ، وذلك لبقاء صورته محفوظة فى خياله . وهذا قد يوجد عند بعض الحيوانات دون بعض ، فهو لا يوجد مثلاً عند الفراش المتهافت على النار ، ولذلك يقذف بنفسه على النار لشغفه بالضياء ، فيظن أن السراج كوة مفتوحة إلى ضوء النهار ، فيلقى نفسه عليه فيتأذى به ، ولكنه يعاود ذلك مرة بعد أخرى ، ولو كان عنده ذلك الروح الحافظ للصور لما عاد ، ولكن الكلب إذا ضربه شخص بالعصا ، ورأى العصا مرة أخرى ، حاذرها وهرب منها .

والمرتبة الثالثة : مرتبة « الروح العقلى » الذى يدرك به الإنسان المعانى الخارجة عن الحس والخيال ، وهو الجوهر البشرى الخاص ، ولا يوجد عند البهائم ولا عند الأطفال ، وتتسع مدركات هذا الروح ومعارفه الكلية إذا ترجح نور العقل على نور العين .

والمرتبة الرابعة : هى مرتبة « الروح الفكرى » وهو الذى يحصل العلوم والمعارف العقلية المحض ، فيوجد بينها تأليفات وازدواجات ، ويستنبط منها معارف شريفة ، ويستنتج منها معقولات جديدة ، ويظل يتزايد فى ذلك إلى ما شاء الله .

والمرتبة الخامسة : هي مرتبة ، الروح القدسى السوى ، وهو الروح الذى يختص به الأنبياء وبعض الأولياء ، وفيه تتجلى لوائح الغيب وأحكام الآخرة ، وجملة من معارف ملكوت السموات والأرض ، بل من المعارف الربانية التى يقصر عنها الروح العقلى والروح الفكرى ، وإليه الإشارة بقول الله تبارك وتعالى : « وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنَا ، مَا كُتِبَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ ، وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُوراً نُوراً تَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا ، وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ . صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ، أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ » (الشورى ٥٢ ، ٥٣) .

° ° °

وقد يتساءل متسائل عن مصير الأرواح بعد وفاة أرواحها .
إن المفهوم من النصوص الدينية أن الروح تفارق جسد صاحبها عند موته ، ولكن تظل لروحه صلة ما بهذا الجسد ، وتصور حقيقة هذه الصلة ليس فى طاقة الإنسان ، ولما كانت الأرواح مختلفة الدرجات والمناصب ، وكان منها أرواح أخيار ، وأرواح أشرار ، فإن مصير الأرواح بعد الموت يختلف ، فقد أخبرت السنة النبوية المطهرة مثلاً أن أرواح الشهداء تكون فى أجواف طيور خضر تطير تحت العرش ، وقد جاء فى كتابى « أدب الأحاديث القدسية » أنه لما أصيب من أصيب من المسلمين فى غزوة أحد ، جعل الله تعالى أرواحهم فى طيور خضر ترد أنهار الجنة تأكل من ثمارها ، وتاوى إلى قناديل من ذهب معلقة فى ظل العرش ، فلما وجدوا طيب ما كلهم ومشربهم ومقيلهم ، قالوا : من يبلغ إخواننا عنا أننا أحياء فى الجنة نُرزق ، لتلا يزهّدوا فى الجهاد ، ولا يبنكلوا عن الحرب ، فقال لهم ربهم : أنا أبلغهم عنكم . وأنزل الله فى ذلك قوله : « وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ

اللَّهُ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ . فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ
وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ .
يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ . (آل عمران
الآيات ١٦٩ - ١٧١) .

ويستنبط بعض الكتابين عن الروح من النصوص الدينية أن أرواح
الأنبياء والرسل تكون في أعلى عليين ، في الملأ الأعلى ، وبعض أرواح
الشهداء تسرح في الجنة كما تشاء ، وبعض الأرواح يكون موقوفاً على
أبواب الجنة ، وبعض الأرواح يكون محبوساً في الأرض ، والأرواح
المتشابهة أو المتقاربة تتداني وتتلاقى .

وإذا كان للروح تعلقها بصاحبها منذ البداية ، فلها تعلقها به وهو
ما زال جينياً في بطن أمه ، ولها تعلقها به وهو حي يسمي في الدنيا ، ولها
تعلقها به في أثناء نومه ، ولها تعلقها به أيضاً وهو في المرحلة البرزخية ،
ما بين الدنيا والآخرة ، أو ما بين الموت والبعث ، ولقد شفت السنة المطهرة
نفوسنا في هذا المجال بحديث جليل فيه تفصيل .

فقد روى البراء بن عازب قال : كنا في جنازة في بقيع العرقد (اسم
مكان) فأتانا النبي صلى الله عليه وسلم ، فقمعد وقعدنا حوله كأن على رؤوسنا
الطير ، وهو يلحد له ، فقال : أعوذ بالله من عذاب القبر (ثلاث مرات)
إن العبد المؤمن إذا كان في إقبال من الآخرة ، وانقطاع من الدنيا ، نزلت
إليه ملائكة كأن وجوههم الشمس ، فيجلسون منه مدَّ البصر ، ثم يجيء
ملك الموت حتى يجلس عند رأسه ، فيقول : أيتها النفس الطيبة ، اخرجي
إلى مغفرة من الله ورضوان ، فتخرج تسيل كما تسيل القطرة من السماء ،
فيأخذها ، فإذا أخذها لم يدعها في يده طرفة عين حتى يأخذوها فيجعلوها

في ذلك الكفن وذلك الحنوط ، ويخرج منها كأطيب نفحة مسك وُجدت على وجه الأرض .

فيصعدون بها ، فلا يمرون بها على مالا من الملائكة إلا قالوا : ما هذا الروح الطيب ؟

فيقولون : روح فلان بن فلان ، بأحسن أسمائه التي كانوا يسمونه بها في الدنيا ، حتى ينتهوا بها إلى السماء الدنيا ، فيستفتحون له فيفتح له ، فيشيعه من كل سماء مقربوها إلى السماء التي تليها .

إلى أن يقول الله عز وجل : اكتبوا كتاب عبدى في عليين ، وأعيدوه إلى الأرض ، فإني منها خلقتهم ، وفيها أعيدهم ، ومنها أخرجهم تارة أخرى .

فتعاد روحه في حسده ، فيأتيه ملكان فيقولان له : من ربك ؟ فيقول : ربي الله .

فيقولان له : ما دينك ؟

فيقول : ديني الإسلام .

فيقولان له : ما هذا الرجل الذي بُعث فيكم ؟

فيقول : هو رسول الله .

فيقولان له : وما علمك بهذا ؟

فيقول : قرأت كتاب الله ، فأمنت به وصدقت .

فينادى مناد من السماء أن صدق عبدى ، فأفرشوه من الجنة ، وافتحوا له باباً من الجنة . فيأتيه من ريحها وطيبها ، ويفسح له في قبره مدد بصره ، ويأتيه

رجل حسن الوجه حسن الثياب طيب الريح ، فيقول : أأبشر بالذى يسرك ، هذا يومك الذى كنت توعد . فيقول له : من أنت ؟ فوجهك الوجه الذى

يجيء بالخير .

فيقول أنا عمك الصالح . فيقول : ربّ ، أقم الساعة حتى أرجع إلى أهلي ومالي .

وإن العبد الكافر إذا كان في انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة ، نزل إليه من السماء ملائكة سود الوجوه ، معهم المسوح (١) ، فيجلسون منه مدّة البصر ، ثم يحيى ملك الموت حتى يجلس عند رأسه ، فيقول : أيتها النفس الخبيثة . اخرجي إلى سخط من الله وغضب . فتتفرق في جسده ، فينتزعها كما ينتزع السفود من الصوف المبلول ، فيأخذها ، فإذا أخذها لم يدعها في يده طرفة عين حتى يجعلوها في تلك المسوح ، ويخرج منها كأنّ ربيع جيفة وُجدت على ظهر الأرض ، فيصعدون بها فلا يمرون بها على ملامن الملائكة إلا قالوا : ما هذا الروح الخبيث ؟ . فيقولون : فلان بن فلان ، بأقبح أسمائه التي كان يسمى بها في الدنيا ، حتى ينهى بها إلى السماء الدنيا ، فيستفتح له فلا يفتح .

ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم قول ربه : « لا تفتح لهم أبواب السماء ولا يدخلون الجنة حتى يلجّ الجمل في سمّ الخياط » . (الأعراف الآية ٤٠) .

فيقول الله تبارك وتعالى : اكتبوا كتابه في سجين (٢) ، في الأرض السفلى ، فتطرح روحه طراحاً ، ثم قرأ النبي : « ومن يشرك بالله فكأنما خرّ من السماء فنخطفه الطير أو تهوى به الريح في مكان سحيق » (الحج الآية ٣١) . فتعاد روحه في جسده ، ويأتيه ملكان فيقولان له : من ربك ؟ . فيقول : هاهاه لا أدري .

(١) المسوح : ثياب خشنة .

(٢) سجين : ديوان الشر . وقيل هو اسم علم للنار . وقيل هو الحسن .

فيقولان : ما هذا الرجل الذى بُعث فيكم ؟ . فيقول : هاه هاه لا أدري . فينادى منادٍ من السماء أن كذب عبدى ، فأفرشوه من النار ، وافتحوا له باباً إلى النار . فيأتيه من حرها وسمومها ، ويُصَيَّق عليه قبره حتى تختلف فيه أضلاعه ، ويأتيه رجل قبيح الوجه قبيح الثياب متننٍ الريح ، فيقول : أبشر بالذى يسوؤك ، هذا يومك الذى كنت توعد .

فيقول : من أنت ، فوجهك الوجه الذى يحيى بالشر ؟ !
 فيقول : أنا عمك الخبيث . فيقول : رب لا تقم الساعة ! !
 ويدل هذا النص على أن الروح لا تنفصل انفصالاً تاماً عن صاحبها بعد موته ، بل يكون لها نوع تعلق به ، وقد جاء حديث آخر يؤكد ذلك ، قال فيه : « إذا حُمِل الميت على نعشه رفرف روحه فوق النعش ، ويقول : يا أهلى ويا ولى ، لا تلعبن بكم الدنيا كما لعبت بى ، جمعت المال من حله وغير حله ، فالغنى لغيرى ، والتبعة علىَّ ، فاحذروا مثل ما حل بى » !

كما أن هذا النص يشير إلى حالة النعم ، أو حالة الشقاء التى يكون عليها فى المرحلة البرزخية بين الدنيا والآخرة ، وهو يشير كذلك إلى حساب القبر وعذابه أو نعيمه ، ويؤيد ذلك من القرآن قول الله تعالى عن آل فرعون « وَحَاقَ بِالْأَلْفِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ . النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ، وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ » « سورة غافر ٤٥ ، ٤٦ »
 فعرضهم على النار غدوًّا وعشيًّا لا بد أن يكون قبل يوم القيامة ، والحديث عنهم بعد أن هلكوا ، فلزم أن يكون هذا العرض على النار بعد الهلاك وقبل البعث ، فلم يبق إلا أن يكون فى فترة البرزخ .

وكذلك جاء الحديث يقول : « القبر إما روضة من رياض الجنة ، وإما

حفرة من حفر النار . وقد يؤكد هذا أنه جاء في الحديث المتفق عليه أن النبي عليه الصلاة والسلام وقف على المكان الذي دفنوا فيه قتلى غزوة بدر من المشركين ، وجعل يناديهم بأسمائهم : يا فلان بن فلان ، ويا فلان بن فلان ، هل وجدتم ما وعدكم ربكم حقاً ، فإني وجدت ما وعدني ربي حقاً ؟ . فقال له عمر : يا رسول الله ، ما تخاطب من أقوام قد جئفوا (أى ماتوا وصاروا جيفة) فأجابه النبي صلى الله عليه وسلم : والذي بعثني بالحق ما أتم بأسمع لما أقول منهم ، ولكنهم لا يستطيعون جواباً .

• • •

والذي أفهمه من خلال الفكر الإسلامى أن الروح موجودة ، ولكن جوهر حقيقتها غير معروف لنا ، وأنها أسبق وأبني وأشرف من المادة ، وأنا نستطيع التعرف إلى كثير من آثارها وظواهرها ، وأن آثارها تظهر لنا حين اتصالها بالجسد ، وأن الجسد لا قيمة له دون الروح ، وأن البحث قد شغل - وسيظل يشغل - العلماء والحكماء والشعراء والأدباء إلى ما شاء الله ، وكان للروح جاذبية قاهرة تشدنا إليها ، فنسارع نحوها ، وكلما خطونا نحوها مرحلة بعدت عنا مراحل ، وتركت لنا على طريق البحث أشياء من «مخلفاتها» . وكأنها حسناء تبرقت بحجبها وأستارها ، ولكن أشعة ساطعة من بهائها تنفذ من خلال حجبها فتشاغل أبصارنا وبصائرنا ، فنجد المسير إليها ، والطريق طويل طويل طويل .

وهذا مثلاً هو الشيخ الرئيس الفيلسوف العالم ابن سينا : أبو علي الحسين بن عبد الله المتوفى سنة ثمان وعشرين وأربعمائة . يصوغ بضعة وعشرين بيتاً في موضوع الروح ، وتسمى هذه الأبيات « عينية ابن سينا في الروح » ، فتملاً الدنيا وتشغل الناس ، وتوضع عليها الشروح بعد

الشروح ، وتصاغ فيها المعارضة بعد المعارضة ، وهذه الآيات تؤكد لنا أن الروح جذابة ذات بهاء وسناء ، وأنها ممنعة مبرقة ، وأنها كما أشار ورمز في قصيدته ، وكما صورت « دائرة المعارف » - جوهر قائم بذاته ، لا عرض من أعراض الجسم . ولعل أول شيء ينشأ عنها « العرضية » كونها مستقلة تمام الاستقلال عن الجسم ، فبينما نجد الجسم محتاجاً إليها لا يتعين ولا يتحدد إلا إذا اتصلت به نفس - أو روح - معينة ، نجد النفس يمكنها أن تعيش منفردة ، لأنها جوهر بسيط ، والبسيط لا يفسد .

إن علاقة الروح بالجسم علاقة جوار عرضي ، لا علاقة اتحاد ذاتي ، وكما هبطت الروح إلى الجسم من الملاء الأعلى وهي كارهة ، تفارقه عند الموت وهي كارهة ، لأنها ألفت مع طول الجوار . وكان الجسم سجن كثيف أو قفص ضيق يحول دون بلوغ الروح كما لها ، وكأنها لا تألف مجاورة الجسد إلا بحكم الاعتياد ، فإذا فارقت بعد اكتمال ملكاتها العقلية ، وبلوغها الكمال بالتأمل ، انكشف عنها الغطاء وأدركت السعادة .

وما الحياة الدنيا سوى مدرسة أهبطت الروح إليها ، لتكتسب المطالب العقلية ، فإذا نالت هذه المطالب ، تمتعت بعد الموت بالسعادة الأبدية ، وإذن فسعادة النفوس الطيبة والأرواح الخيرة العارفة هي في اتصالها بالعقل الضعَّال ، وأما النفوس الشريرة التي ألفت السوء والإثم فإن جزاءها هو العذاب الدائم ، ومن هنا يكون الثواب في الآخرة متناسباً مع كمال النفس في الدنيا .

يقول ابن سينا في قصيدته :

هبطت إليك من المحل الأرفع	ورقاء ذات تعزز وتمنع
محبوبة عن كل مقلة عارف	وهي التي سفرت ، ولم تبرقع
وصلت على كره إليك ، وربما	كرهت فراقك وهي ذات ترفع

ألفت مجاورة الخراب البلقع
ومنازلاً بفراقها لم تقنع
عن ميم مركزها بذات الأجرع
بين المعالم والظلول الخُضَع
بمدافع تهيم ، ولم تنقطع
درست بتكرار الرياح الأربع
قصر عن الأوج الفسيح المربع
ودنا الرحيل إلى الفضاء الأوسع
عنها حليف الترب غير مشيع
ما ليس يُدرك بالعيون الهُجَع
والعلم يرفع كل من لم يرفع
عال إلى قعر الحضيض الأوضَع ؟
طويت على الفذ الليب الأروع
لتعود سامعة لما لم تسمع
في العالمين ، فخرقها لم يرقع
حتى إذا غربت بغير المطلع
ثم انطوى فكأنه لم يلمع
عنه ، فتار العلم ذات تشعشع

أنفت وما أنست ، فلما واصلت
وأظنها نسيت عهداً بالحمي
حتى إذا اتصلت بهاء هبوطها
علقت بها ثاء الثقيل ، فأصبحت
تبكى إذا ذكرت عهداً بالحمي
وتظل ساجعةً على الدمن التي
إذ عاقها الشُّرك الكثيف ، وصدَّها
حتى إذا قرب المسير عن الحمي
وغدت مفارقةً لكل محلف
سجعت ، وقد كُشف الغطاء فأبصرت
وغدت تغرد فوق دروة شاهق
فلأى شيء أهبطت من شامخ
إن كان أهبطها الإله لحكمة
فهبوطها إن كان ضربة لازب
وتعود عالمة بكل خفية
وهي التي قطع الزمان طريقها
فكانها برق تألق بالحمي
أنعم برد جواب ما أنا فاحص

وهذه الأبيات فيها من الرموز والإشارات عن الروح ومبدئها العلوى ،
وهبوطها إلى عالم الأشباح والأجساد ، ورسالتها في هذا العالم ، وعودتها إلى
علوها ، مالا يكفى فيه ما قدمنا من تلخيص ، فمن أراد أن يسبح في عالم
الروح فليجأ إلى شرح من شروح هذه العينة وهي كثيرة .